# نصوص فى مقام العقل
# عند حجة الإسلام الغزالى

## [ مكانة العقل ]

[ **من لم يشك لم ينظر، ومن لم ينظر لم يبصر، ومن لم يبصر ففي العمى والضلال** ] أبو حامد الغزالى.

الحمد لله الذى اجتبى من صفوة عباده عصابة الحق وأهل السنة، وخصَّهم من بين سائر الفرق بمزايا اللطف والمِنَّة، وأفاض عليهم من نور هدايته ما كشف به عن حقائق الدين، وأنطق ألسنتهم بحجته التى قمع بها ضلال الملحدين، وصفَّى سرائرهم من وساوس الشياطين، وطهر ضمائرهم عن نزغات الزائغين، وعمّر أفئدتهم بأنوار اليقين، حتى اهتدوا بها إلى أسرار ما أنزله على لسان نبيه وصفيه محمد ﷺ سيد المرسلين.



obeikandl.com

واطَّلَعوا على طريق التلفيق[1] بين مقتضيات الشرائع وموجبات العقول، وتحققوا أن لا معاندة بين الشرع المنقول والحق المعقول، وعرفوا أن من ظن من الحشوية[2] وجوب الجمود على التقليد واتباع الظواهر، ما أُتوا به إلا من ضعف العقول وقلة البصائر، وأن من تغلغل من الفلاسفة وغلاة المعتزلة في تصرف العقل حتى صادموا به قواطع الشرع ما أُتوا به إلا من خبث الضمائر، فميل أولئك إلى التفريط وميل هؤلاء إلى الإفراط، وكلاهما بعيد عن الحزم والاحتياط.

بل الواجب المحتوم في قواعد الاعتقاد، ملازمة الاقتصاد، والاعتماد على الصراط المستقيم، فكلا طرفي قصد الأمور ذميم.

وأَنَّى يستتب الرشاد لمن يقنع بتقليد الأثر والخبر، وينكر مناهج البحث والنظر؟ أو لا يعلم أنه لا مستند للشرع إلا قول سيد البشر ﷺ، وبرهان العقل هو الذي عُرف به صدقه فيما أخبر؟

---

(١) من اللفق.. أي الجمع والوصل والتوفيق.

(٢) الذين يقفون عند ظواهر النصوص لعجزهم عن النظر في مقاصدها.

وكيف يهتدى للصواب من اقتفى محض العقل واقتصر، وما استضاء بنور الشرع ولا استبصر؟. فليت شعرى! كيف يفزع إلى العقل من حيث يعتريه العى والحصر، أو لا يعلم أن خُطا العقل قاصر وأن مجاله ضيق منحصر؟

هيهات قد خاب على القطع والبتات، وتعثر بأذيال الضلالات، من لم يجمع بتأليف الشرع والعقل هذا الشتات. فمثال العقل: البصر السليم عن الآفات والآذاء، ومثال القرآن: الشمس المنتشرة الضياء، فأخلق بأن يكون طالب الاهتداء، المستغنى إذا استغنى بأحدهما عن الآخر فى غمار الأغبياء. فالمُعْرض عن العقل مكتفيًا بنور القرآن مثاله: المتعرض لنور الشمس مغمضًا للأجفان، فلا فرق بينه وبين العميان. فالعقل مع الشرع نور على نور، والملاحظ بالعين العور لأحدهما على الخصوص متدلٍّ بحبل غرور.

وسيتضح لك - أيها المشوق إلى الاطلاع على قواعد عقائد أهل السنة، المقترح تحقيقها بقواطع الأدلة - أنه لم يستأثر بالتوفيق، بالجمع بين الشرع والتحقيق، فريق سوى

هذا الفريق[1] . . **فقد عرفت بهذا أن العين أَوْلَى باسم النور من النور المعروف المحسوس، ثم عرفت أن العقل أولى باسم النور من العين، بل بينهما من التفاوت ما يصح أن يُقال معه إنه أَوْلَى، بل الحق أنه يستحق الاسم دونه.**

*** (دقيقة) :**

اعلم أن العقول ، وإن كانت مبصرة، فليست المبصرات عندها على مرتبة واحدة، بل بعضها تكون عندها كأنها حاضرة، كالعلوم الضرورية، مثل علمه بأن الشيء الواحد لا يكون قديمًا حديثًا، ولا يكون موجودًا معدومًا، والقول الواحد لا يكون صدقًا وكذبًا، وأن الحكم إذا ثبت للشيء جوازه ثبت لمثله، وأن الأخص إذا كان موجودًا كان الأعم واجب الوجود، فإذا وُجد السواد فقد وجد اللون، وإذا وُجد الإنسان فقد وُجد الحيوان . . وأما عكسه فلا يلزم في العقل، إذ لا يلزم من وجود اللون وجود السواد، ولا من وجود الحيوان وجود الإنسان، إلى غير ذلك من القضايا الضرورية في الواجبات والجائزات والمستحيلات .

---

(١) [الاقتصاد في الاعتقاد] ص ٢، ٣ . طبعة مكتبة صبيح – القاهرة – بدون تاريخ .

ومنها ما لا يقارن فى كل حال إذا عرض عليه، بل يحتاج إلى أن يهز أعطافه، ويستورى زناده، وينبه عليه بالتنبيه، كالنظريات، وإنما ينبهه كلام الحكماء، **فعند إشراق نور الحكمة يصير الإنسان مبصراً بالفعل بعد أن كان مبصراً بالقوة، وأعظم الحكمة كلام الله تعالى، ومن جملة كلامه القرآن خاصة، فيكون منزلة آيات القرآن عند عين العقل منزلة نور الشمس عند العين الظاهرة، إذ به يتم الإبصار، فبالحرىٍّ أن يسمى القرآن نوراً، كما يسمى نور الشمس نوراً، فمثال القرآن: نور الشمس، ومثال العقل: نور العين، وبهذا يُفهم معنى قوله تعالى: ﴿ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا ﴾** [التغابن: ٨]، **وقوله تعالى: ﴿ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُّبِيناً ﴾** [النساء: ١٧٤] **وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾** [الشورى: ٥٢].

**ولا يبعد أيها المعتكف فى عالم العقل أن يكون وراء العقل طور آخر يظهر فيه ما لا يظهر فى العقل، كما لا يبعد**

كون العقل طوراً وراء التمييز والإحساس ينكشف فيه غرائب وعجائب يقصر عنها الإحساس والتمييز، فلا تجعل أقصى الكمال وقفًا على نفسك..[1].

والأصل في ذلك أن وراء ما يتصوره العقلاء أموراً ورد الشرع بها، ولا يعلم حقائقها إلا الله تعالى والأنبياء الذين هم وسائط بين الله تعالى وبين عباده...[2].

وإن ما ينتفع به في الآخرة أو يضر لا سبيل إلى معرفته بالتجربة، كما عرف الطبيب، إذ لا مجال للعلوم التجريبية إلا بما يشاهد على سبيل التكرر، ومن الذى رجع من ذلك العالم فأدرك بالمشاهدة ما نفع وضر، وأخبر عنه؟ ولا يُدرك بقياس العقل، فإن العقول قاصرة عن ذلك، والعقلاء بأجمعهم معترفون بأن العقل لا يهتدى إلى ما بعد الموت، ولا يرشد إلى ضرر المعاصى ونفع الطاعات، لا سيما على سبيل التفصيل والتحديد، كما وردت به الشرائع، بل أقروا بجملتهم أن ذلك

---

(١) [مشكاة الأنوار] ص ٣٦، ٥١ طبعة القاهرة سنة ١٩٠٧م.

(٢) [المضنون به على غير أهله] ص٣٤٥ – طبعة مكتبة الجندى – القاهرة – ضمن مجموعة – بدون تاريخ.

لا يدرك إلا بنور النبوة، وهى قوة وراء قوة العقل، يدرك بها من أمر الغيب فى الماضى والمستقبل أمور لا على طريق التعرف بالأسباب العقلية، وهذا مما اتفق عليه الأوائل من الحكماء، فضلاً عن الأولياء والعلماء الراسخين القاصرين نظرهم على الاقتباس من حضرة النبوة، المقرين بقصور كل قوة سوى هذه القوة..[1].

إن ما لا يُعْلَم بالضرورة ينقسم إلى:

ما يُعْلَم بدليل العقل دون الشرع.

وإلى ما يُعْلَم بالشرع دون العقل.

وإلى ما يُعْلَم بهما.

أما المعلوم بدليل العقل دون الشرع، فهو حدوث العالم، ووجود المُحدث، وقدرته، وعلمه وإرادته، فإن كل ذلك ما لم يثبت لم يثبت الشرع، إذ الشرع يُبْنَى على الكلام، فإن لم يثبت كلام النفس لم يثبت الشرع، وكل ما يتقدم فى الرتبة على كلام النفس يستحيل إثباته بكلام النفس، وما يستند

---

(١) [إلجام العوام عن علم الكلام] ص ١٧١، ١٧٢ طبعة مكتبة الجندى - ضمن مجموعة - بدون تاريخ.

إليه، ونفس الكلام أيضًا فيما اخترناه لا يمكن إثباته بالشرع، ومن المحققين من تكلف ذلك وادعاه.

وأما المعلوم بمجرد السمع، فتخصيص أحد الجائزين بالوقوع، فإن ذلك من موافق العقول، وإنما يُعرف من الله تعالى بوحي وإلهام، ونحن نعلم من الوحي إليه بسماع كالحشر والنشر والثواب والعقاب وأمثالها.

وأما المعلوم بهما، فكل ما هو واقع في مجال العقل ومتأخر في الرتبة عن إثبات كلام الله تعالى، كمسألة الرؤية، وانفراد الله تعالى بخلق الحركات والأعراض[1] كلها وما يجرى هذا المجرى.

ثم، كل ما ورد السمع به يُنْظَر، فإن كان العقل مجوزًا له وجب التصديق به قطعًا إن كانت الأدلة السمعية قاطعة في متنها ومستندها، لا يتطرق إليها احتمال، ووجب التصديق بها ظنًا إن كانت ظنية..

وأما ما قضى العقل باستحالته، فيجب فيه تأويل ما ورد السمع به، ولا يُتَصَوَّرُ أن يشمل السمع على قاطع مخالف

---

(١) مفردها عرض – بفتح العين والراء – وهو المقابل للجوهر والذات، وهو يقوم بغيره لا بذاته.

للمعقول، وظواهر أحاديث التشبيه أكثرها غير صحيحة، والصحيح منها ليس بقاطع، بل هو قابل للتأويل، فإن توقف العقل فى شيء من ذلك فلم يقض فيه باستحالة ولا جواز وجب التصديق أيضًا لأدلة السمع، فيكفى فى وجوب التصديق انفكاك العقل عن القضاء بالإحالة، وليس يشترط اشتماله على القضاء بالتجويز، وبين الرتبتين فرق ربما يزل عن ذهن البليد..[1].

والوحى الإلهى والشرع الحق لا يرد بما ينبو عنه العقل.. فإن أراد بنبو العقل أن برهان العقل يدل على استحالته، كخلق الله تعالى مثل نفسه، أو الجمع بين المتضادين، فهذا ما لا يرد الشرع به.

وإن أراد به ما يقصر العقل عن إدراكه، ولا يستقل بالإحاطة بكنهه، فهذا ليس بمحال أن يكون فى علم الأطباء مثل جلب المغناطيس للحديد، وأن المرأة لو مشت فوق حية مخصوصة ألقت الجنين، وغير ذلك من الخواص، وهذا مما ينبو عنه العقل، بمعنى أنه لا يقف على حقيقته، ولا يستقل

---

(١) [الاقتصاد فى الاعتقاد] ص ١٢١، ١٢٢.

بالاطلاع عليه، فلا ينبو عنه الحكم باستحالته، وليس كل ما لا يدركه العقل محالاً فى نفسه.. وفرق بين البعيد والمحال، فإن البعيد هو ما ليس بمألوف، والمحال ما لا يُتصور كونه[١]...

وأما اتباع العقل الصرف، فلا يقوى عليه إلا أولياء الله تعالى، الذين أراهم الله الحق حقًّا وقواهم على اتباعه[٢].. ولهذا كان رأس مال كل السعادات العقل[٣]...

إن فى قلب الإنسان عينًا هى صفة كمالها، وهى التى يُعبر عنها تارة بالعقل وتارة بالروح وتارة بالنفس الإنسانية.

والعقل أولى بأن يُسمَّى نورًا من العين الظاهرة لرفعة قدره عن النقائص السبع:

أما الأولى: فهو أن العين لا تبصر نفسها، والعقل يدرك غيره ويدرك نفسه، ويدرك صفات نفسه..

---

(١) [المضنون به على غير أهله] ص ٣١٨، ٣١٩.

(٢) [الاقتصاد فى الاعتقاد] ص ٩٨.

(٣) [رسالة الغزالى إلى ملك شاه فى العقائد] ص ٧٩ طبعة القاهرة - ضمن مجموعة سنة ١٩٠٧م.

الثانيـة : أن العـين لا تبصـر مـا قرب منها قربًا مفرطًا ولا ما بعد، والعقل عنده يستوى القريب والبعيد..

الثـالثـة: أن العين لا تدرك مـا وراء الحـجـاب، والعـقل يتـصـرف فى العرش والكرسى ومـا وراء حجب السـمـوات.. كتصرفه فى عالمه الخاص به..

والرابعـة : أن العـين تـدرك من الأشـيـاء ظاهرها وسطحها الأعلى دون باطنها، بل قوالبها وصورها وأرواحها، دون حقائقها، والعقل يتغلغل فى بواطن الأشياء وأسرارها، ويدرك حـقـائقـهـا وأرواحـهـا ويسـتنبط أسـبـابهـا وعللها وحكمتها.

والخامسة : أن العين تبصر بعض الموجودات، إذ تقصر عن جـميع المعقولات وعن كثير من المحسوسات، ولا تدرك الأصوات ولا الروائح ولا الطعوم والحرارة والبـرودة والقوى المدركـة، أعنى قوة السمع والشم والذوق، والموجودات كلها مجال العقل، إذ يدرك هذه الموجودات التى عددناها ومـا لم نعدد، وهو الأكثر، فيتصرف فى جميعها، ويحكم عليها حكمًا يقينًا صادقًا..

والسادسة : أن العين لا تبصر ما لا نهاية له، فإنها تبصر صفات الأجسام المعلومات، والأجسام لا تتصور إلا متناهية، والعقل يدرك المعقولات، والمعقولات لا تتصور أن تكون متناهية.. إنه يدرك الأعداد، ولا نهاية لها.. ويدرك أنواعًا من النسب بين الأعداد، ولا يتصور لها نهاية..

والسابعة: أن العين تدرك الكبير صغيراً، فترى الشمس فى مقدار مجرد، والكواكب فى صورة دنانير منثورة على بساط أزرق، وترى الكواكب والظل والصبى ساكنة، والعقل يدرك أن الكواكب والشمس أكبر من الأرض أضعافًا مضاعفة، ويراها متحركة، ويرى نمو الصبى..

فالعين أولى باسم النور من النور المعروف المحسوس، والعقل أولى باسم النور من العين[1]..

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ﴾ [الإسراء : ٧٠].

فكان من أعظم ما شرفه به وكرمه : العقل الذى تنبه به على البهيمة، وألحقه بسببه بعالم الملائكة، حتى تأهل به لمعرفة

---

(١) [مشكاة الأنوار] ص ٣٣، ٣٦.

باريه ومبدعه بالنظر فى مخلوقاته والاستدلال به على معرفة صفاته بما أودعه فى نفسه من الحكمة[1].

«والأصول الأربعة: الكتاب والسنة والإجماع والعقل»[2].

* * *

* (فى السببية):

«إننا نسلِّم أن النار خُلقت خلْقَةً إذا لاقاها قطنتان متماثلتان أحرقتهما، ولم تفرِّق بينهما إذا تماثلتا من كل وجه».

ولكنا، مع هذا، نجوِّز أن يُلْقَى شخص فى النار فلا يحترق، إما بتغير صفة النار أو بتغيُّر صفة الشخص، فيحدث من الله تعالى أو من الملائكة صفة فى النار تقصر سخونتها على جسمها، بحيث لا تتعداها، وتبقى معها سخونتها، وتكون

---

(١) [أسرار المخلوقات] ص ٧٧ – طبعة تونس سنة ١٩٩٠م.

(٢) [المستصفى من علم الأصول] جـ١ ص ٣١٥، ٣١٦، طبعة دار صادر – بيروت.

على صورة النار حقيقتها، ولكن لا تتعدى سخونتها وأثرها، أو يحدث فى بدن الشخص صفة ولا يخرجه عن كونه لحمًا وعظمًا، فيدفع أثر النار، فإنَّا نرى من يطلى نفسه بالطلق[1] ثم يقعد فى تنور موقد فإنه لا يتأثر بالنار، والذى لم يشاهد ذلك ينكره، وإنكار الخصم اشتمال القدرة على إثبات صفة من الصفات فى النار أو فى البدن تمنع الاحتراق كإنكار من لم يشاهد الطلق وأثره..

وفى مقدورات الله تعالى غرائب وعجائب، ونحن لم نشاهد جميعها، فلا ينبغى أن ينكر إمكانها ويحكم باستحالتها.

وكذلك إحياء الميت وقلب العصا ثعبانًا ممكن بهذا الطريق، وهو أن المادة قابلة لكل شىء، فالتراب وسائر العناصر يستحيل نباتًا، ثم النبات يستحيل عند أكل الحيوان له دمًا، ثم الدم يستحيل منيًا، ثم المنى ينصب فى الرحم فيتخلق حيوانًا، وهذا بحكم العادة واقع فى زمان متطاول، فلِمَ

---

(١) مادة عازلة.

يحيل الخصم أن يكون فى مقدورات الله تعالى أن يدبر المادة فى هذه الأطوار فى وقت أقرب مما عهد فيه؟ وإذا جاز فى وقت أقرب فلا ضبط للأقل، فتستعجل هذه القوى فى عملها، ويحصل به ما هو معجزة النبى....

إن الاقتران بين ما يُعْتَقَد فى العادة سببًا وما يُعْتَقَدُ مسبَّبًا ليس ضروريًّا عندنا[1]، بل كل شيئين ليس هذا ذاك، ولا ذاك هذا، ولا إثبات أحدهما متضمن لإثبات الآخر ولا نفيه متضمن لنفى الآخر فليس من ضرورة وجود أحدهما وجود الآخر، ولا من ضرورة عدم أحدهما عدم الآخر، مثل الرى والشرب، والشبع والأكل، والاحتراق ولقاء النار، والنور وطلوع الشمس، والموت وجز الرقبة، والشفاء وشرب الدواء، وإسهال البطن واستعمال المسهل، وهلم جرا إلى كل المشاهدات من المقترنات فى الطب والنجوم ومن الصناعات والحرف، وإن اقترانها لما سبق في تقدير الله سبحانه وتعالى

---

(١) أى ليس حتميًّا.. فالذى ينكره الغزالى هو الحتمية، التى تنفى جواز أن يوقف خالق الأسباب عملها فى المسببات.. لأن القائلين بالحتمية ينكرون المعجزات، وينكرون كون الخالق - سبحانه - هو الفاعل الحقيقى.

لخلقها على التساوق، لا لكونها ضروريًّا فى نفسه غير قابل للفرق، بل فى المقدور خلق الشبع دون الأكل، وخلق الموت دون جز الرقبة، وإدامة الحياة مع جز الرقبة، وهلم إلى جميع المقترنات..

وأنكر الفلاسفة إمكانه، وادعوا استحالته.. وعن هذا المعنى أنكروا وقوع إبراهيم - صلى الله على نبينا وعليه وسلم - فى النار مع عدم الاحتراق، وبقاء النار نارًا، إذ زعموا أن ذلك لا يمكن إلا بسلب الحرارة من النار، وذلك بخروجه من كونه نارًا، أو بقلب ذات إبراهيم وبدنه حجرًا أو شيئًا لا يؤثر فيه النار، ولا هذا ممكن ولا ذاك..

إن فاعل الاحتراق بخلق السواد فى القطن والتفرق فى أجزائه وجعله حراقًا ورمادًا هو الله تعالى، بواسطة الملائكة، أو بغير واسطة، فأما النار فهى جماد لا فعل لها.. وقد تبين أن الموجود عند الشىء لا يدل على أنه موجود به.. وإذا ثبت أن الفاعل يخلق الاحتراق بإرادته عند ملاقاة القطنة النار أمكن فى العقل أن لا يخلق مع وجود الملاقاة..[1].

---

(١) [تهافت الفلاسفة] ص ٦٥ - ٦٨ طبعة القاهرة سنة ١٩٠٣م.

# فى العقل وشرفه وحقيقته وأقسامه[1]
# بيان شرف العقل

اعلم أن هذا مما لا يحتاج إلى تكلف فى إظهاره، لا سيما وقد ظهر شرف العلم من قبل العقل. **والعقل منبع العلم ومطلعه وأساسه، والعلم يجرى منه مجرى الثمرة من الشجرة، والنور من الشمس، والرؤية من العين، فكيف لا يشرف ما هو وسيلة السعادة فى الدنيا والآخرة؟** أو كيف يستراب فيه والبهيمة مع قصور تمييزها تحتشم العقل، حتى إن أعظم البهائم بدنًا وأشدها ضراوة وأقواها سطوة إذا رأى صورة الإنسان احتشمه وهابه، لشعوره باستيلائه عليه، لما خص به من إدراك الحيل. ولذلك قال ﷺ[2]: «الشَّيْخُ فِى قَوْمِهِ كَالنَّبِىِّ فِى أُمَّتِه» وليس ذلك لكثرة ماله، ولا لكبر شخصه، ولا لزيادة قوته، بل لزيادة تجربته التى هى

---

(١) [إحياء علوم الدين] جـ١ ص١٤٠، ١٥٢ - طبعة دار الشعب - القاهرة.

(٢) حديث الشيخ فى قومه كالنبى فى أمته: ابن حبان فى الضعفاء من حديث ابن عمر وأبو منصور الديلمى من حديث أبى رافع بسند ضعيف.

ثمرة عقله، ولذلك ترى الأتراك والأكراد وأجلاف العرب وسائر الخلق مع قرب منزلتهم من رتبة البهائم يوقرون المشايخ بالطبع، ولذلك حين قصد كثير من المعاندين قتل رسول الله ﷺ، فلما وقعت أعينهم عليه واكتحلوا بغرته الكريمة، هابوا، وتراءى لهم ما كان يتلألأ على ديباجة وجهه من نور النبوة، وإن كان ذلك باطنًا في نفسه بطون العقل، **فشرف العقل مدرك بالضرورة.**

وإنما القصد أن نورد ما وردت به الأخبار والآيات في ذكر شرفه، وقد سماه الله نوراً في قوله تعالى: ﴿**اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ**﴾ [النور: ٣٥] وسمى العلم المستفاد منه روحًا ووحيًا وحياة، فقال تعالى: ﴿**وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا**﴾ [الشورى: ٥٢] وقال سبحانه: ﴿**أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ**﴾ [الأنعام: ١٢٢] وحيث ذكر النور والظلمة أراد به العلم والجهل، كقوله: ﴿**وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ**﴾ [المائدة: ١٦] وقال ﷺ(١): «يا أَيُّهَا النَّاسُ اعْقِلُوا عَنْ رَبِّكُمْ وَتَوَاصَوْا بِالْعَقْلِ

---

(١) حديث يا أيها الناس اعقلوا عن ربكم وتواصوا بالعقل – الحديث: داود بن المحبر أحد الضعفاء في كتاب العقل من حديث أبي هريرة وهو في مسند الحارث بن أبي أسامة عن داود.

تَعْرِفُوا مَا أُمِرْتُم بِهِ وَمَا نُهِيتُمْ عَنْهُ، وَاعْلَمُوا أَنَّهُ يَنْجِدُكُمْ عِنْدَ رَبِّكُم، وَاعْلَمُوا أَنَّ الْعَاقِلَ مَنْ أَطَاعَ اللهَ وَإِنْ كَانَ دَمِيمَ الْمَنْظَرِ حَقِيرَ الخطَرِ دَنِيَّ المنزِلَةِ رَثَّ الْهَيْئَةِ، وأنَّ الجَاهِلَ مَنْ عَصَى اللهَ تَعَالَى وَإِن كَانَ جَمِيلَ الْمَنْظَرِ عَظِيمَ الخَطرِ شَرِيفَ الْمَنْزِلَةِ حَسَنَ الهَيْئَةِ فَصِيحًا نَطُوقًا، فَالْقِرَدَةُ وَالخَنَازِيرُ أَعْقَلُ عِنْدَ اللهِ تَعَالى مِمَّنْ عَصَاهُ، وَلا تَغْتَرَّ بِتَعْظِيمِ أَهْلِ الدُّنْيَا إِيَّاكُمْ فَإِنَّهُمْ مِنَ الخَاسِرِينَ». وقال ﷺ(١): «أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللهُ الْعَقْلَ فَقَالَ لَهُ: أَقْبِلْ. فَأَقْبَلَ، ثُم قَالَ لَهُ: أَدبِرْ فأدبَرَ، ثُمَّ قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: وَعِزَّتِي وَجَلالِي مَا خَلَقْتُ خَلْقًا أَكْرَمَ عَلَيَّ مِنْكَ، بِكَ آخُذُ، وَبِكَ أُعْطِي، وَبِكَ أُثِيبُ، وَبِكَ أُعَاقِبُ». فإن قلت: فهذا العقل إن كان عَرَضًا، فكيف خُلق قبل الأجسام؟ وإن كان جوهرًا، فكيف يكون جوهرًا قائمًا بنفسه ولا يتحيز؟

فاعلم أن هذا من علم المكاشفة، فلا يليق ذكره بعلم المعاملة وغرضنا الآن ذكر علوم المعاملة. وعن أنس

---

(١) حديث أول ما خلق الله العقل قال له أقبل - الحديث: الطبراني في الأوسط من حديث أبي أمامة وأبو نعيم من حديث عائشة بإسنادين ضعيفين.

رضى الله عنه[1] قال: أَثْنَى قَوْمٌ عَلَى رَجُلٍ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ حَتَّى بَالَغُوا، فقال ﷺ: كَيْفَ عَقْلُ الرَّجُلِ؟ فَقَالُوا: نُخْبِرُكَ عَنِ اجتهاده فى العبادة وأصناف الخير، وتسألنا عن عقله! فقال ﷺ: «إن الأحمق يُصيبُ بجهْلِه أَكْثَرَ مِنْ فُجُورِ الْفَاجِرِ، وَإِنَّمَا يَرْتَفِعُ الْعِبادُ غَداً فِي الدَّرَجَاتِ الزُّلْفَى مِنْ رَبِّهِم عَلَى قَدْرِ عُقُولِهِمْ». وعن عمر رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ[2]: «مَا اكْتَسَبَ رَجُلٌ مِثْلَ فَضْلِ عَقْلٍ يَهْدِي صَاحِبهُ إِلَى هُدًى وَيَرُدُّهُ عَنْ رَدَى، وَمَا تَمَّ إِيمانُ عَبْدٍ وَلا اسْتَقَامَ دِينُهُ حَتَّى يَكْمُلَ عَقْلُهُ». وقال ﷺ[3]: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيُدْرِكُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ دَرَجَةَ الصَّائِمِ القائم، وَلا يَتمُّ لِرَجُلٍ حُسْنُ خُلُقِهِ حَتَّى يَتمَّ عَقْلُه، فَعِنْدَ ذَلِكَ تَمَّ إِيمانُهُ وَأَطَاعَ رَبَّهُ وَعَصَى عَدُوَّهُ إِبْلِيسَ».

---

(١) حديث أنس أثنى قوم على رجل عند النبى ﷺ حتى بالغوا فى الثناء فقال: كيف عقل الرجل الحديث: ابن المحبر فى العقل بتمامه والترمذى الحكيم فى النوادر مختصراً.

(٢) حديث عمر ما اكتسب رجل مثل فضل عقل – الحديث: ابن المحبر فى العقل وعنه الحارث بن أبى أسامة.

(٣) حديث إن الرجل ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم ولا يتم لرجل حسن خلقه حتى يتم عقله الحديث: ابن المحبر من رواية عمرو ابن شعيب عن أبيه عن جده به. والحديث عند الترمذى مختصر دون قوله ولا يتم، من حديث عائشة وصححه.

وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ[1]: «لِكُلِّ شَيْءٍ دَعَامَةٌ وَدِعَامَةُ الْمُؤْمِنِ عَقْلُهُ، فَبِقَدْرِ عَقْلِه تَكُونُ عِبَادَتُهُ، أَمَا سَمِعْتُمْ قَوْلَ الفجَّارِ فى النار: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾. وعن عمر رضى الله عنه أنه قال لتميم الدارى[2]: «مَا السُّؤدَدُ فِيكُمْ؟ قَالَ العَقْلُ: قَالَ: صَدَقْتَ: سَأَلْتُ رسول الله ﷺ كما سألتك، فقال كما قلت، ثم قال: سألت جبْرِيلَ عليه السلام: مَا السُّؤْدَدُ؟ فَقَال: العَقْلُ». وعن البراء بن عازب رضى الله عنه[3] قال: «كَثُرَت المسَائِلُ يَومًا على رَسُول الله ﷺ فَقَال: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ مَطِيَّةً وَمَطِيَّةُ الْمَرْءِ العَقْلُ، وَأَحْسَنُكُمْ دَلالَةً وَمَعْرِفَةً بِالْحَجَّةِ أَفْضَلُكُمْ عَقْلاً».

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال[4]: «لَمَّا رَجَعَ

---

(١) حديث أبى سعيد لكل شيء دعامة ودعامة المؤمن عقله – الحديث: ابن المحبر وعنه الحارث.

(٢) حديث عمر أنه قال لتميم الدارى ما السؤدد فيكم قال العقل قال صدقت سألت رسول الله ﷺ – الحديث: ابن المحبر وعنه الحارث.

(٣) حديث البراء كثرت المسائل على رسول الله ﷺ فقال يا أيها الناس إن لكل شيء مطية – الحديث: ابن المحبر وعنه الحارث.

(٤) حديث أبى هريرة لما رجع رسول الله ﷺ من غزوة أحد سمع الناس يقولون كان فلان أشجع من فلان – الحديث: ابن المحبر.

رَسُولُ اللهِ ﷺ مِن غَزْوَةِ أُحُدٍ سَمِعَ النَّاسَ يَقُولُونَ: فُلانٌ أَشْجَعُ مِنْ فُلانٍ وَفُلانٌ أَبْلَى مَا لَمْ يُبْلِ فُلانٌ وَنَحْو هَذَا، فقال رسولُ الله ﷺ: أَمَّا هَذَا فلا علْمَ لَكُمْ بِهِ، قَالوا: وَكَيْفَ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ فقال ﷺ: إِنَّهُمْ قَاتَلُوا عَلَى قَدْرِ مَا قَسَمَ اللهُ لَهُمْ مِنَ العَقْلِ، وَكَانَتِ نُصْرَتُهُمْ وَنِيَّتُهُمْ عَلَى قَدْرِ عُقُولِهِمْ فَأُصِيبَ مِنْهُمْ مَنْ أَصِيبَ عَلَى مَنَازِلَ شَتَّى، فإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيامَةِ اقْتَسَمُوا الْمَنَازِلَ عَلَى قَدْرِ نيَّاتِهِم وَقَدْرِ عُقولِهِمْ».

وعن البراء بن عازب أنه ﷺ قال[1]: «جَدَّ الْمَلائِكَةُ وَاجْتَهَدُوا فِي طَاعَةِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِالْعَقْلِ، وَجَدَّ الْمُؤمِنُونَ مِنْ بَنِي آدَمَ عَلَى قَدْرِ عُقُولِهِمْ، فَأَعْمَلُهُمْ بِطَاعَةِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ أَوفَرُهُمْ عَقْلاً». وعن عائشة رضى الله عنها قالت[2]: «قُلْتُ:

---

(١) حديث البراء بن عازب جَدَّ الملائكة واجتهدوا فى طاعة الله بالعقل – الحديث: ابن المحبر كذلك وعنه الحارث فى مسنده ورواه البغوى فى معجم الصحابة من حديث ابن عازب رجل من الصحابة غير البراء وهو بالسند الذى رواه ابن المحبر.

(٢) حديث عائشة قلت: يا رسول الله بأى شىء يتفاضل الناس فى الدنيا قال بالعقل – الحديث ابن المحبر والترمذى الحكيم فى النوادر نحوه.

يَا رَسُول الله، بِم يَتَفاضَلُ النَّاسُ فِي الدنيا؟ قَالَ: بِالْعَقْلِ، قُلْتُ: وَفِي الآخِرَةِ؟ قَالَ: بِالْعَقْل. قُلْتُ: أَلَيْسَ إِنَّمَا يُجْزَوْنَ بِأَعْمَالِهِم؟ فقال ﷺ: يَا عَائِشَةُ: وَهَلْ عَمِلُوا إلا بِقَدْرِ مَا أعطَاهُمْ عَزَّ وجَلَّ مِنَ الْعَقْلِ؟ فَبِقَدْرِ مَا أُعْطُوا مِنَ الْعَقْلِ كَانَتْ أَعْمَالُهُمْ، وَبِقَدْرِ مَا عَمِلُوا يُجْزَوْنَ».

وعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ(١): «لِكُلِّ شَيْءٍ آلَةٌ وَعُدَّةٌ، وَإِنَّ آلَةَ الْمُؤمنِ الْعَقْلُ، وَلِكُلِّ شَيْءٍ مَطِيَّةً وَمَطِيَّةُ المَرْءِ الْعَقْلُ، وَلِكُلِّ شَيْءٍ دِعَامَةً وَدِعَامَةَ الدينِ الْعَقْلُ، وَلِكُلِّ قَوْمٍ غَايَةٌ وَغَايَةُ العبَادِ الْعَقْلُ، وَلِكُلِّ قَوْمٍ دَاعٍ وَدَاعِي الْعَابدينَ الْعَقْلُ، وَلِكُلِّ تَاجِرٍ بِضَاعَةٌ وَبِضَاعَةُ المُجتهدينَ الْعَقْلُ، وَلِكُلِّ أَهْلِ بَيْتٍ قَيِّمٌ وَقَيِّمُ بُيُوتِ الصِّدِّيقينَ الْعَقْلُ، وَلِكُلِّ خَرَابٍ عِمَارَةٌ وَعِمَارَةُ الآخِرَةِ العَقلُ، ولِكُلِّ امْرئٍ عَقِبٌ يُنْسَبُ إِلَيْه وَيُذْكَرُ بِه وَعَقِبُ الصِّدِّيقينَ الَّذِي يُنْسَبُون إِلَيْه وَيُذْكَرُونَ بِهِ الْعَقْلُ، وَلِكُلِّ سَفْرٍ فُسْطَاطٌ وَفُسْطَاطُ المُؤْمِنين

---

(١) حديث ابن عباس لكل شيء آلة وعدة وإن آلة المؤمن العقل – الحديث: ابن المحبر وعنه الحارث.

الْعَقْلُ». وقال ﷺ(١): «إِنَّ أَحَبَّ الْمُؤْمِنِين إِلَى اللهِ عَزَّ وجَلَّ مَنْ نَصَبَ فِي طَاعَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَنَصَحَ لِعِبَادِهِ وكَمُلَ عَقْلُهُ وَنَصَحَ نَفْسَهُ فَأَبْصَرَ، وَعَمِلَ بِهِ أَيَّامَ حَيَاتِهِ فَأَفْلَحَ وَأَنْجَحَ». وقال ﷺ(٢): «أَتَمُّكُمْ عَقْلاً أَشَدُّكُمْ للهِ تَعَالَى خَوْفًا وَأَحْسَنُكُمْ فِيمَا أَمرَكُمْ بِهِ وَنَهَى عَنْهُ نَظَرًا، وَإِنْ كَانَ أَقَلَّكُمْ تَطَوُّعًا».

* * *

(١) حديث أن أحب المؤمنين إلى الله من نصب فى طاعة الله – الحديث ابن المحبر من حديث ابن عمر ورواه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس بإسناد آخر ضعيف.

(٢) حديث أتمكم عقلاً أشدكم لله خوفًا – الحديث : ابن المحبر من حديث أبى قتادة.



obeikandl.com

# بيان حقيقة العقل وأقسامه

اعلم أن الناس اختلفوا فى حد العقل وحقيقته، وذهل الأكثرون عن كون هذا الاسم مطلقًا على معان مختلفة، فصار ذلك سبب اختلافهم.

والحق الكاشف للغطاء فيه: أن العقل اسم يطلق بالاشتراك على أربعة معان، كما يطلق اسم العين مثلاً على معانٍ عدة، وما يجرى هذا المجرى، فلا ينبغى أن يطلب لجميع أقسامه حد واحد، بل يفرد كل قسم بالكشف عنه.

**فالأول**: الوصف الذى يفارق الإنسان به سائر البهائم، وهو الذى استعدَّ به لقبول العلوم النظرية، وتدبير الصناعات الخفية الفكرية، وهو الذى أراده الحارث بن أسد المحاسبى، حيث قال فى حد العقل: **إنه غريزة يتهيأ بها إدراك العلوم النظرية، وكأنه نور يقذف فى القلب، به يستعد لإدراك الأشياء**. ولم ينصف من أنكر هذا ورد العقل إلى مجرد العلوم الضرورية، فإن الغافل

عن العلوم والنائم يسميان عاقلين باعتبار وجود هذه الغريزة فيهما مع فقد العلوم. وكما أن الحياة غريزة بها يتهيأ الجسم للحركات الاختيارية والإدراكات الحسية، **فكذلك العقل غريزة بها تتهيأ بعض الحيوانات للعلوم النظرية**. ولو جاز أن يسوى بين الإنسان والحمار في الغريزة والإدراكات الحسية، فيقال: لا فرق بينهما إلا أن الله تعالى بحكم إجراء العادة يخلق في الإنسان علومًا وليس يخلقها في الحمار والبهائم، لجاز أن يسوَّى بين الحمار والجماد في الحياة، ويقال: لا فرق إلا أن الله عز وجل يخلق في الحمار حركاتٍ مخصوصةً بحكم إجراء العادة، فإنه لو قدر الحمار جماداً ميتًا لوجب القول بأن كل حركة تشاهد منه فالله سبحانه وتعالى قادر على خلقها فيه على الترتيب المشاهد، وكما وجب أن يقال: لم يكن مفارقته للجماد في الحركات إلا بغريزة اختصت به عبَّر عنها بالحياة، فكذا مفارقة الإنسان البهيمة في إدراك العلوم النظرية بغريزة يعبر عنها بالعقل، وهو كالمرآة التي تفارق غيرها من الأجسام في حكاية الصور والألوان بصفة اختصت بها وهي الصقالة، وكذلك العين تفارق الجبهة في صفات وهيئات بها استعدت للرؤية. **فنسبة هذه الغريزة إلى العلوم كنسبة العين**

**إلى الرؤية، ونسبة القرآن والشرع إلى هذه الغريزة فى سياقها إلى انكشاف العلوم لها كنسبة نور الشمس إلى البصر**، فهكذا ينبغى أن تفهم هذه الغريزة.

**الثانى** : هى العلوم التى تخرج إلى الوجود فى ذات الطفل المميز بجواز الجائزات واستحالة المستحيلات: كالعلم بأن الاثنين أكثر من الواحد، وأن الشخص الواحد لا يكون فى مكانين فى وقت واحد، وهو الذى عناه بعض المتكلمين حيث قال فى حد العقل: إنه بعض العلوم الضرورية كالعلم بجواز الجائزات واستحالة المستحيلات. وهو أيضًا صحيح فى نفسه؛ لأن هذه العلوم موجودة، وتسميتها عقلاً ظاهر، وإنما الفاسد أن تنكر تلك الغريزة ويقال: لا موجود إلا هذه العلوم.

**الثالث** : علوم تستفاد من التجارب بمجارى الأحوال، فإن من حنكته التجارب وهذبته المذاهب يقال إنه عاقل فى العادة، ومن لا يتصف بهذه الصفة فيقال إنه غبى غَمْر جاهل، فهذا نوع آخر من العلوم يسمى عقلاً.

**الرابع** : أن تنتهى قوة تلك الغريزة إلى أن يعرف عواقب

الأمور، ويقمع الشهوة الداعية إلى اللذة العاجلة ويقهرها، فإذا حصلت هذه القوة سمى صاحبها عاقلاً، من حيث إن إقدامه وإحجامه بحسب ما يقتضيه النظر فى العواقب لا بحكم الشهوة العاجلة، وهذه أيضًا من خواص الإنسان التى بها يتميز عن سائر الحيوان. فالأول هو الأس والسِّنخ(*) والمنبع، والثانى هو الفرع الأقرب إليه، والثالث فرع الأول والثانى؛ إذ بقوة الغريزة والعلوم الضرورية تستفاد علوم التجارب، والرابع هو الثمرة الأخيرة وهى الغاية القصوى، فالأولان بالطبع، والأخيران بالاكتساب، ولذلك قال علىٌّ كرم الله وجهه:

**رأيت العقل عقلين فمطبوع ومسموع**
**ولا ينفع مسموع إذ لم يك مطبوع**
**كما لا تنفع الشمس وضوء العين ممنوع**

والأول هو المراد بقوله ﷺ(١): «مَا خَلَقَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ خَلْقًا أَكْرَمَ عَلَيْهِ مِنَ الْعَقْلِ» والأخير هو المراد بقوله ﷺ(٢): «إِذَا تَقَرَّبَ

---

(*) السنخ: الأصل.

(١) حديث ما خلق الله خلقًا أكرم عليه من العقل: الترمذى الحكيم فى النوادر بسند ضعيف من رواية الحسن عن عدة من الصحابة.

(٢) حديث إذا تقرب الناس بأنواع البر فتقرب أنت بعقلك: أبو نعيم =

النَّاس بأبْوابِ الْبِرِّ والأَعْمَالِ الصَّالحةِ فَتَقَرَّبْ أَنْتَ بِعَقْلِكَ» وهو المراد بقول رسول الله ﷺ لأبى الدرداء رضى الله عنه(١) «ازدَدْ عَقْلاً تَزْدَدْ مِنْ رَبِّكَ قُرْبًا» فَقَالَ: بِأَبِى أَنْت وأمِّى وَكَيْفَ لِى بِذَلِكَ؟ فقال: «اجْتَنِبْ مَحَارِمَ الله تَعَالَى وَأَدِّ فَرائِضَ الله سُبْحَانَهُ تَكُنْ عَاقِلاً، وَاعْمَلْ بِالصَّالحاتِ مِنَ الأَعْمَالِ تَزْدَدْ فِى عَاجِلِ الدُّنْيَا رِفْعَةً وَكَرَامَةً وَتَنَلْ فِى آجِلِ الْعُقْبَى بِهَا مِنْ رَبِّكَ عَزَّ وَجَلَّ الْقُربَ وَالْعِزَّ». وعن سعيد بن المسيب(٢) «أن عُمَرَ وَأُبَىَّ بْنَ كَعْبٍ وَأَبَا هُرَيْرَةَ رَضِىَ الله عَنْهُمْ دَخَلُوا عَلَى رَسُولِ الله ﷺ فقالوا: يَا رَسُولَ الله، مَنْ أَعْلَمُ النَّاسِ؟ فقالَ ﷺ: الْعَاقِلُ. قَالوا: فَمَنْ أَعْبَدُ النَّاسِ؟ قَال: الْعَاقِل، قَالُوا: فَمَنْ أَفْضَلُ النَّاسِ؟ قَال: الْعَاقِلُ. قَالُوا: أَلَيْسَ الْعَاقِلُ

---

=فى الحلية من حديث على إذا اكتسب الناس من أنواع البر ليتقربوا بها إلى ربنا عز وجل فاكتسب أنت من أنواع العقل تسبقهم بالزلفة والقرب. وإسناده ضعيف.

(١) حديث ازدد عقلاً تزدد من ربك قربًا – الحديث: قاله لأبى الدرداء: ابن المحبر ومن طريقه الحارث بن أبى أسامة والترمذى الحكيم فى النوادر.

(٢) حديث ابن المسيب أن عمر وأُبى بن كعب وأبا هريرة دخلوا على رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله، من أعلم الناس؟ فقال: العاقل – الحديث: ابن المحبر.

مَنْ تَمَّتْ مُرُوءَتُهُ وَظَهَرتْ فَصَاحَتُهُ وَجَادَتْ كَفُّهُ وَعَظُمَتْ مَنْزِلَتُهُ؟ فقال ﷺ: ﴿وَإِن كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٣٥] إن العاقل هو المتقى وإن كان فى الدنيا خسيسًا ذليلاً، قال ﷺ فى حديث آخر(١): «إِنَّمَا الْعَاقِلُ مَنْ آمَنَ بالله وَصَدَّقَ رُسُلَهُ وَعَمِلَ بِطَاعَتِه».

ويشبه أن يكون أصل الاسم فى أصل اللغة لتلك الغريزة، وكذا فى الاستعمال، وإنما أطلق على العلوم من حيث إنها ثمرتها كما يعرف الشيء بثمرته، فيقال: العلم هو الخشية، والعالم من يخشى الله تعالى، فإن الخشية ثمرة العلم، فتكون كالمجاز لغير تلك الغريزة، ولكن ليس الغرض البحث عن اللغة. والمقصود أن هذه الأقسام الأربعة موجودة، والاسم يطلق على جميعها، ولا خلاف فى وجود جميعها إلا فى القسم الأول. والصحيح وجودها، بل هى الأصل، وهذه العلوم كأنها معضمنة فى تلك الغريزة بالفطرة، ولكن تظهر فى الوجود إذا جرى سبب يخرجها

---

(١) حديث إنما العاقل من آمن بالله وصدق رسله وعمل بطاعته: ابن المحبر من حديث سعيد بن المسيب مرسلاً وفيه قصة.

إلى الوجود، حتى كأن هذه العلوم ليست بشيء وارد عليها من خارج، وكأنها مستكنة فيها فظهرت. ومثاله الماء في الأرض، فإنه يظهر بحفر البئر، ويجتمع ويتميز بالحس؛ لا بأن يساق إليها شيء جديد. وكذلك الدهن في اللوز، وماء الورد في الورد، ولذلك قال تعالى: ﴿ **وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ** ﴾ [الأعراف: ١٧٢] فالمراد به إقرار نفوسهم لا إقرار الألسنة، فإنهم انقسموا في إقرار الألسنة حيث وجدت الألسنة والأشخاص إلى مُقرٍّ وإلى جاحد، ولذلك قال تعالى: ﴿ **وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ** ﴾ [الزخرف: ٨٧] معناه: إن اعتبرت أحوالهم شهدت بذلك نفوسهم وبواطنهم ﴿ **فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا** ﴾ [الروم: ٣٠] أي كل آدمي فطر على الإيمان بالله عز وجل، بل على معرفة الأشياء على ما هي عليه، أعني أنها كالمضمنة فيها لقرب استعدادها للإدراك.

ثم لما كان الإيمان مركوزاً في النفوس بالفطرة انقسم الناس إلى قسمين: إلى من أعرض فنسي وهم الكفار، وإلى من أجال خاطره فتذكر فكان كمن حمل شهادة فنسيها بغفلة ثم تذكرها.

ولذلك قال عز وجل: ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [البقرة : ٢٢١] ﴿ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الأَلْبَابِ ﴾ [ص : ٢٩] ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ ﴾ [المائدة: ٧] ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر : ١٧] وتسمية هذا النمط تذكّرًا ليس ببعيد، فكأن التذكر ضربان : أحدهما: أن يذكر صورة كانت حاضرة الوجود فى قلبه لكن غابت بعد الوجود، والآخر: أن يذكر صورة كانت مضمنة فيه بالفطرة. وهذه حقائق ظاهرة للناظر بنور البصيرة، ثقيلة على مَنْ مستروحه السماع والتقليد دون الكشف والعيان، ولذلك تراه يتخبط فى مثل هذه الآيات، ويتعسف فى تأويل التذكر وإقرار النفوس أنواعًا من التعسفات، ويتخايل إليه فى الأخبار والآيات ضروب من المناقضات، وربما يغلب ذلك عليه حتى ينظر إليها بعين الاستحقار، ويعتقد فيها التهافت. ومثاله مثال الأعمى الذى يدخل دارًا فيعثر فيها بالأوانى المصفوفة فى الدار فيقول: ما لهذه الأوانى لا ترفع من الطريق وترد إلى مواضعها؟ فيقال له إنها فى مواضعها، وإنما الخلل فى بصرك. فكذلك خلل البصيرة يجرى

مجراه وأطمّ منه وأعظم، إذ النفس كالفارس، والبدن كالفرس، وعمى الفارس أضر من عمى الفرس.

ولمشابهة بصيرة الباطن لبصيرة الظاهر قال الله تعالى: ﴿ **مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ** ﴾ [النجم : ١١] وقال تعالى: ﴿ **وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ** ﴾ [الأنعام : ٧٥] وسمى ضده عمى، فقال تعالى: ﴿ **فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ** ﴾ [الحج : ٤٦] وقال تعالى: ﴿ **وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلاً** ﴾ [الإسراء: ٧٢] وهذه الأمور التى كشفت للأنبياء بعضها كان بالبصر وبعضها كان بالبصيرة، وسمى الكل رؤية.

وبالجملة من لم تكن بصيرته الباطنة ثاقبة، لم يعلق به من الدين إلا قشوره، وأمثلته دون لبابه وحقائقه. فهذه أقسام ما ينطلق اسم العقل عليها.

* * *

# بيان تفاوت النفوس فى العقل

قد اختلف الناس فى تفاوت العقل، ولا معنى للاشتغال بنقل كلام من قل تحصيله، بل الأولى والأهم المبادرة إلى التصريح بالحق.

والحق الصريح فيه أن يقال: إن التفاوت يتطرق إلى الأقسام الأربعة سوى القسم الثانى، وهو العلم الضرورى بجواز الجائزات واستحالة المستحيلات، فإن من عرف أن الاثنين أكثر من الواحد عرف أيضًا استحالة كون الجسم فى مكانين، وكون الشيء الواحد قديمًا حادثًا، وكذا سائر النظائر، وكل ما يدركه إدراكًا محققًا من غير شك. وأما الأقسام الثلاثة فالتفاوت يتطرق إليها.

أما القسم الرابع وهو استيلاء القوّة على قمع الشهوات، فلا يخفى تفاوت الناس فيه، بل لا يخفى تفاوت أحوال الشخص الواحد فيه، وهذا التفاوت يكون تارة لتفاوت الشهوة، إذ قد يقدر العاقل على ترك بعض الشهوات دون بعض، ولكن غير

مقصور عليه، فإن الشاب قد يعجز عن ترك الزنا، وإذا كبر وتم عقله قدر عليه، وشهوة الرياء والرياسة تزداد قوّة بالكبر لا ضعفًا، وقد يكون سببه التفاوت فى العلم المعرف لغائلة تلك الشهوة، ولهذا يقدر الطبيب على الاحتماء عن بعض الأطعمة المضرة، وقد لا يقدر من يساويه فى العقل على ذلك إذا لم يكن طبيبًا، وإن كان يعتقد على الجملة فيه مضرة، ولكن إذا كان علم الطبيب أتم كان خوفه أشد، فيكون الخوف جنداً وعُدّة له فى قمع الشهوات وكسرها، وكذلك يكون العالم أقدر على ترك المعاصى من الجاهل لقوّة علمه بضرر المعاصى، وأعنى به العالم الحقيقى دون أرباب الطيالسة وأصحاب الهذيان. فإن كان التفاوت من جهة الشهوة لم يرجع إلى تفاوت العقل، وإن كان من جهة العلم فقد سمينا هذا الضرب من العلم عقلاً أيضًا، فإنه يقوى غريزة العقل، فيكون التفاوت فيما رجعت التسمية إليه. وقد يكون بمجرد التفاوت فى غريزة العقل، فإنها إذا قويت كان قمعها للشهوة لا محالة أشد.

وأما القسم الثالث وهو علوم التجارب، فتفاوت الناس فيها لا ينكر، فإنهم يتفاوتون بكثرة الإصابة وسرعة الإدراك، ويكون سببه إما تفاوتًا فى الغريزة، وإما تفاوتًا فى الممارسة. فأما الأول

وهو الأصل أعنى الغريزة، فالتفاوت فيه لا سبيل إلى جحده، فإنه مثل نور يشرق على النفس ويطلع صبحه. ومبادئ إشراقه عند سن التمييز، ثم لا يزال ينمو ويزداد نموًّا خفى التدريج إلى أن يتكامل بقرب الأربعين سنة. ومثاله نور الصبح، فإن أوائله يخفى خفاء يشق إدراكه، ثم يتدرج إلى الزيادة، إلى أن يكمل بطلوع قرص الشمس.

وتفاوت نور البصيرة كتفاوت نور البصر، والفرق مدرك بين الأعمش وبين حاد البصر، بل سنة الله عز وجل جارية فى جميع خلقه بالتدريج فى الإيجاد، حتى إن غريزة الشهوة لا تظهر فى الصبى عند البلوغ دفعة وبغتة بل تظهر شيئًا فشيئًا على التدريج، وكذلك جميع القوى والصفات. ومن أنكر تفاوت الناس فى هذه الغريزة فكأنه منخلع عن ربقة العقل.

ومن ظن أن عقل النبى ﷺ مثل عقل آحاد السوادية وأجلاف البوادى فهو أخس فى نفسه من آحاد السوادية، وكيف ينكر تفاوت الغريزة ولولاه لما اختلف الناس فى فهم العلوم، ولما انقسموا إلى بليد لا يفهم بالتفهيم إلا بعد تعب طويل من المعلم،

وإلى ذكى يفهم بأدنى رمز وإشارة، وإلى كامل تنبعث من نفسه حقائق الأمور بدون التعليم! كما قال تعالى: ﴿ **يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ** ﴾ [النور: ٣٥] وذلك مثل الأنبياء عليهم السلام، إذ يتضح لهم فى بواطنهم أمور غامضة من غير تعلم وسماع، ويعبر عن ذلك بالإلهام. وعن مثله عبَّر النبى ﷺ حيث قال(١): «إِنَّ رُوحَ الْقُدسِ نَفَثَ فِى رُوعِى: أَحْبِبْ مَنْ أَحْبَبْتَ فَإِنَّكَ مُفَارِقُهُ، وَعِشْ مَا شِئْتَ فَإِنَّكَ مَيِّتٌ، وَاعْمَلْ مَا شِئْتَ فَإِنَّكَ مَجْزِى بِهِ». وهذا النمط من تعريف الملائكة للأنبياء يخالف الوحى الصريح الذى هو سماع الصوت بحاسة الأذن، ومشاهدة الملك بحاسة البصر، ولذلك أخبر عن هذا بالنفث فى الروع. ودرجات الوحى كثيرة، والخوض فيها لا يليق بعلم المعاملة، بل هو من علم المكاشفة.

ولا تظنن أن معرفة درجات الوحى تستدعى منصب الوحى، إذ لا يبعد أن يعرِّف الطبيبُ المريضَ درجات الصحة،

---

(١) إن روح القدس نفث فى روعى أحبب من أحببت فإنك مفارقه – الحديث: الشيرازى فى الألقاب من حديث سهل بن سعد نحوه والطبرانى فى الأصغر والأوسط من حديث على وكلاهما ضعيف.

ويعلِّم العالم الفاسقَ درجات العدالة وإن كان خاليًا عنها، فالعلم شيء ووجود المعلوم شيء آخر، فلا كل من عرف النبوَّة والولاية كان نبيًّا ولا وليًّا، ولا كل من عرف التقوى والورع ودقائقه كان تقيًّا.

وانقسام الناس إلى من يتنبه من نفسه ويفهم، وإلى من لا يفهم إلا بتنبيه وتعليم، وإلى من لا ينفعه التعليم أيضًا ولا التنبيه، كانقسام الأرض إلى ما يجتمع فيه الماء فيقوى فيتفجر بنفسه عيونًا، وإلى ما يحتاج إلى الحفر ليخرج إلى القنوات، وإلى ما لا ينفع فيه الحفر وهو اليابس، وذلك لاختلاف جواهر الأرض في صفاتها، فكذلك اختلاف النفوس في غريزة العقل. ويدل على تفاوت العقل من جهة النقل ما روى أن عبد الله بن سلام رضي الله عنه سأل النبي ﷺ في حديث طويل في آخره وصف عظم العرش وأن الملائكة قالت[1]: «يَا رَبَّنَا هَلْ خَلَقْتَ شَيْئًا

---

(١) حديث ابن سلام سئل النبي ﷺ في حديث طويل في آخره وصف عظم العرش وأن الملائكة قالت يا رب هل خلقت شيئًا أعظم من العرش – الحديث : ابن المحبر من حديث أنس بتمامه والترمذي الحكيم في النوادر مختصراً.

أَعْظَمَ مِنَ العَرْشِ؟ قَالَ نَعَمْ: الْعَقْلُ، قالُوا وَمَا بَلَغَ مِنْ قَدْرِهِ؟ قَالَ هَيْهَاتَ لا يُحَاطُ بِعِلْمِه، هَلْ لَكُمْ عِلْمٌ بِعَدَدِ الرَّمْلِ؟ قَالُوا: لا. قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فَإِنِّي خَلَقْتُ الْعَقْلَ أَصْنَافًا شَتَّى كَعَدَدِ الرَّمْلِ، فَمِنَ النَّاسِ مَنْ أُعْطِيَ حَبَّةً، وَمِنْهُمْ مَنْ أُعْطِيَ حَبَّتَيْنِ، وَمِنْهُمْ مَنْ أُعْطِيَ الثَّلاثَ وَالأَرْبَعَ، وَمِنْهُمْ مَنْ أُعْطِيَ فَرَقًا، وَمِنْهُمْ مَنْ أُعْطِيَ وَسْقًا(*)، ومِنْهُمْ مَنْ أُعْطِيَ أَكْثَرَ مِن ذلك».

**فإن قلت: فما بال أقوام من المتصوفة يذمون العقل والمعقول؟**

**فاعلم أن السبب فيه أن الناس نقلوا اسم العقل والمعقول إلى المجادلة والمناظرة بالمناقضات والإلزامات، وهو صنعة الكلام، فلم يقدروا على أن يقرروا عندهم أنكم أخطأتم فى التسمية، إذ كان ذلك لا ينمحى عن قلوبهم بعد تداول الألسنة به ورسوخه فى القلوب، فذموا العقل والمعقول، وهو المسمى به عندهم. فأما نور البصيرة الباطنة التى بها يعرف الله تعالى ويعرف صدق رسله فكيف يتصور ذمه وقد أثنى الله**

---

(*) الفرق والوسق: نوعان من المكاييل.

**تعالى عليه؟ وإن ذم فما الذى بعده يحمد؟ فإن كان المحمود هو الشرع فبِمَ علم صحة الشرع؟ فإن علم بالعقل المذموم الذى لا يوثق به فيكون الشرع أيضًا مذمومًا. ولا يلتفت إلى من يقول: إنه يدرك بعين اليقين ونور الإيمان لا بالعقل، فإنَّا نريد بالعقل ما يريده بعين اليقين ونور الإيمان، وهى الصفة الباطنة التى يتميز بها الآدمى عن البهائم حتى أدرك بها حقائق الأمور.**

وأكثر هذه التخبيطات إنما ثارت من جهل أقوام طلبوا الحقائق من الألفاظ فتخبطوا فيها لتخبط اصطلاحات الناس فى الألفاظ. فهذا القدر كاف فى بيان العقل. والله أعلم.

* * *

# المصادر والمراجع


الأفغانى : [الأعمال الكاملة] دراسة وتحقيق: دكتور محمد عمارة – طبعة القاهرة سنة ١٩٦٨م.

الطريقة العزمية : [خطر تقسيم التوحيد على عقائد المسلمين] طبعة القاهرة سنة ١٤٢٦هـ سنة ٢٠٠٥م.

الغزالى – أبو حامد : [إحياء علوم الدين] طبعة دار الشعب – القاهرة.

[الاقتصاد فى الاعتقاد] طبعة مكتبة صبيح – القاهرة – بدون تاريخ.

[مشكاة الأنوار] طبعة القاهرة سنة ١٩٠٧م.

[تهافت الفلاسفة] طبعة القاهرة سنة ١٩٠٣م.

[المضنون به على غير أهله] طبعة مكتبة الجندى – ضمن مجموعة – القاهرة – بدون تاريخ.




obeikandl.com

[إلجام العوام عن علم الكلام] طبعة مكتبة الجندى - ضمن مجموعة القاهرة - بدون تاريخ.

المحاسبى -الحارث بن أسد-: [العقل وفهم القرآن] دراسة وتحقيق: حسين القوتلى - طبعة بيروت سنة ١٣٩٨هـ سنة ١٩٧٨م.

[كتاب فهم القرآن ومعانيه] دراسة وتحقيق: حسين القوتلى - طبعة بيروت سنة ١٣٩٨هـ سنة ١٩٧٨م.

محمد عبده: [الأعمال الكاملة] دراسة وتحقيق: دكتور محمد عمارة - طبعة بيروت سنة ١٩٧٢م والقاهرة سنة ١٩٩٣م.

دكتور محمد عمارة: [مسلمون ثوار] طبعة القاهرة سنة ٢٠٠٦م.

[فتنة التكفير بين الشيعة والوهابية والصوفية] طبعة دار السلام - القاهرة سنة ١٤٣٠هـ سنة ٢٠٠٩م.

**دوريات:**

مجلة [الشهاب] - الجزائر.



obeikandl.com